حكم المفكرين الغربيين على «محمد»

للاستاذ عبد المنعم ماجد

لاح محمد كنجم شارق فى دياجى العصور الوسطى فاختط طريقاً جديداً لعالم جديد ودين جديد ، يعمل على فك قيود العقل من عبودية التقاليد والوهم ومن التعصب الدينى والجنسى . على أن شمس الفكر وإن كانت قد سطعت فى أحضان الشرق فقد ظلت محجوبة بحلكة هذه العصور فى الغرب فلم يستطع مفكرو العصور الوسطى فى أوربا أن يخرجوا من هذا النطاق المضطرم بنزعات التعصب الدينى ليلتمسوا نور الحقائق المجردة عن الهوى ولينطلقوا بالأفكار حرة غير مقيدة ، ولذا لم يكن مستغرباً أن يلاقى محمد الطعن السافر فى ذلك الزمن ، وألا يرتفع صوت واحد بعيداً عن التشويش والتعصب ، فطعن فى شخصيته واتهم بالتلفيق والشعوذة ، واستهجنت رسالته ووصمت بالكفر والانتحال . فترى دانتى كأحد المفكرين البارزين الذين هيأ لهم القدر أن تكون حركة النقلة إلى عصر النهضة على أيديهم يقسو فى حكمه على محمد فيضعه فى الطبقة الثامنة فى الجحيم مع المشعوذين الذين كتب عليهم الخلود أبداً فى نار جهنم ، وجريرته فى رأيه أنه مدع دعا إلى تخليص العقيدة من كل شرك — ولم تكن المسيحية آنذاك يمكن أن تتصوره بأية حال . والواقع أن رأى دانتى فى محمد معبر عن خلال العصر الذى عاش فيه — فهو نفسه أى دانتى عاش فى أواخر العصور الوسطى حيث كانت روح التعصب ما زالت تسود العقول ، وحتى الآن ما زال محمد خصما فى نظر بعض الأوساط الأوربية المفكرة ينظر إليه على أنه النبى الكاذب الذى ادعى بهتاناً أنه نبى الله .

أما فى القرن الثامن عشر ، وهو الذى أطلق عليه الباحثون القرن المضىء — فقد كان عصر تطور فكرى واجتماعى عميق فبدأ فلاسفة هذا القرن ينظرون بنية خالصة إلى أصحاب الحركات الدينية الغير مسيحية ، ويقدرون خلالهم الطيبة محاولين جادين أن يهدهدوا نعرة التعصب التى كانت تشل حرية التفكير فضلا عن أنهم لم يجدوا بأساً فى تلمس الحقائق التى لا ضرر فى الكشف عنها على سلامة المسيحية ، وكانت هذه المرونة فى التفكير مفيدة للاسلام فرأينا من يكتب عن محمد ورسالة محمد بنزاهة وإنصاف وإن وجدنا فى نفس هذا القرن المضىء أولى الملات وأصحاب المآرب الذين لم يتورعوا عن قرع الحقيقة والطعن بقسوة على نبى الاسلام بطريقة اعتبرها بعض المفكرين الغربيين أنفسهم خطرة على سيادة العقل وحرية الفكر . فسالى وبولينفيى وساڤارى أمثلة لبعض البحاث الذين عملوا على إظهار بعض الحقائق فى أثناء دراستهم لشخصية الرسول . فالأول يترجم القرآن فى سنة ١٧٣٤ ، ويبرز لنا محمداً كرجل مثالى ظهر فى الانسانية العليا . وقبله بولينفيى يؤلف كتاباً عن محمد يحاول فيه أن يبرهن بقوة على أفضلية الدين الاسلامى على غيره من الأديان ، ويبرز لنا شخصيته كشرع حصيف مستنير جاء بدين صحيح جعله هداية للعالمين ليحل محل المسيحية واليهودية وهما الديانتان اللتان كانتا قد تقوضت مبادئهما وملأتهما الريبة . أما سارى فيترجم القرآن فى سنة ١٧٨٢ ، ويضع محمداً بين الرجال القلائل الذين ظهروا على سطح الأرض ومنحتهم الطبيعة قدرة خارقة ليغيروا أحوال الناس والعصر وليقودوهم إلى النماء والرخاء . فسيرة محمد فى رأيه تذهل الباحث وتدفعه إلى الإيمان بكمال العقيدة التى توصل إليها

أحق باهتمامهم : البحيرات والأشجار والأنهار والحدائق والبحار والسفين فى الماء والنجوم فى السماء . وإنى لأشاركها هذا الرأى فإننا نملك ساعة من العمر لنحياها ، فلما ذا نقضيها فى البحث عن أشياء كثيرة لا يضيرنا أن نجهلها ما دمنا لا نعرف عنها كل شىء . إننا نعيش كثيراً فى عالم الكتب وقليلاً فى عالم الطبيعة ، ونحن فى ذلك أشبه بذلك الكاتب الذى ظل يدرس كاتباً يونانياً قديماً بينما كان بركان فيزوف يقذف النار ويحرق خمس مدن عامرات

(الخرطوم سودان)　　　　بولس سلامه

والتي ساعدته الظروف فيها . فى أثناء رحلاته شاهد ببصيرة يقظة انقسام المسيحية وعجرفة اليهودية ؛ فأراد أن يكون دينه للجميع ، وأن يكون فيه يسر وانسجام مع الفطرة والعقل . وبالرغم من أنه ولد وثنياً فقد دعا إلى تخليص العقيدة من كل شك ، وتجريد الله من كل مادة . وعبادة إله واحد له الأمر من قبل ومن بعد . ولكي يستميل إليه القلوب ويقنع الناس بصحة مبادئه ويضمن لها التأييد ، أحاط نفسه بالحماية الإلهية ، وادعى أنه رسول الله . فعلى المفكرين المستنيرين أن ينصفوا محمداً لا كرسول بل كأحد هؤلاء الرجال النوادر الذين أثروا فى الحياة تأثيراً ظاهراً لا زال باقياً حتى الآن .

هذا الحكم الرفيق على محمد المقدر لعبقريته قوبل بتيار آخر عنيف ساد بين بعض المفكرين في نفس هذا القرن المضيء ووصل إلى حد التشويه والمثالب . فنرى فولتير يغضب على محمد فى مأساته التي نشرها فى سنة ١٧٤٢ ؛ فى المقدمة يهاجم مباشرة آراء سالى وبولينفي وهما اللذان دافعا عنه ، وعلى أية حال فإن حكم فلتير القاسى على الرسول خففه فى مقالته التى كتبها عن الأخلاق L'essai sur Les Moeurs فاعترف فيها ببعض مواهبه وإن رأى أنه لم يأت بشيء جديد سوى ادعائه النبوة . وقد راج رأى ڤولتير وقتاً فنرى ديدرو يستفيض فى طعنه على محمد بينما نرى كارلايل فى محاضرته عن الأبطال فى ٨ مارس سنة ١٨٤٠ يحمل على الذين يشنعون على نبى الإسلام فيرمونه بالكذب والانتحال ، ويرى أن مثل هذا التفكير البعيد جداً عن جادة الصواب خطر على سيادة العقل بل مخجل المسيحيين أنفسهم . — فهناك مائة وثمانون مليوناً من الأنفس يدينون بالإسلام ويؤمنون بمحمد كرسول من عند الله ، ويتخذون سنته مرشداً لهم فى الحياة — ويتساءل قائلا : هل من المعقول أن هؤلاء جميعاً ينساقون وراء مشعوذ دجال ؟ وهل بلغت الشعوذة من القوة والسيطرة ما يجعل لها هذا السلطان على هذه العقول ؟ الواقع أن هذا التخبط راجع إلى اضطراب العصر — ثم — هو يرى أن محمداً كان مخلصاً بحق لدعوته فقد نظر إلى العالم نظرة كلها حياة قضى فى حب الإله ، وربط ما بين الأبدية وما بين حالنا . فلو كان محمد نبياً أو شاعراً فهو فى كلتا الحالتين رجل غير عادى .

هذه اللفتة الطيبة فى معالجة شخصية محمد وتلك الروية والرغبة فى الوصول إلى حقائق مجردة عن التعصب ازدهرت فى عصرنا الحاضر فاعتبره الكثيرون فى مقدمة المصلحين الذين بذروا بذرة صالحة فى حقل الحضارة والمدنية ، ولكنهم أى هؤلاء العلماء اختلفوا فى الحكم عليه بل لم يستطع بعضهم الوصول إلى رأى ثابت . ولعل أوضح هؤلاء المستشرقين الذين دافعوا عن محمد واهتموا بدراسة سيرته تور أندراى Tor Andrae الألمانى الذى يعتقد فى نبوة محمد ويستفيض بحماس فى تقدير رسالته التى تعتمد فى أصولها على البساطة والفطرة ، وهو يتساءل فى آخر كتابه عن محمد قائلا : هل يمكننا مع هذا أن نتوصل بحق إلى تفهم شخصية محمد على وجهها الصحيح ...

الواقع أن علماء الغرب مازالوا متحيرين فى حكمهم النهائى على محمد

عبد المنعم ماجد
عضو بعثة التاريخ الاسلامى لجامعة فؤاد

ظهر حديثاً كتاب :

حكايات من الصين

كتبها بالانجليزية كاتب صينى

وعربها

عبده حسن الزيات المحامى

تطلب من المكتبات ، ومن مكتب المعرب بشارع إبرهيم باشا رقم ١٠ بالقاهرة

ثمن النسخة عشرة قروش تضاف إليها أجرة البريد

وللمعرب أيضاً :

سعد زغلول من أقضيته (تأليف)

من يوميات محام (تأليف)

حكايات من الهند (ترجمة)